جامعة تكريت – كلية التربية للعلوم الإنسانية– قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية – البكالوريوس– المرحلة الرابعة

اسم المادة : مناهج المفسرين

عنوان المحاضرة

منهج القرطبي في التفسير

أ.د عثمان فوزي علي

منهج القرطبي في التفسير

اسمه ونشأته: هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي، ولم تذكر كتب التاريخ سنة ولادته؛ لكنه من أهل قرطبة، وقد رجّح الدكتور مفتاح السنوسي أن ولادة القرطبي في أواخر القرن السادس، أو مستهل القرن السابع،ثم رحل إلى صعيد مصر واستقرّ بمنية أبي خُصَيب واستقرّ فيها إلى أن توفي في شوال سنة ٦٧١ هـ .

مكانته العلميّة: كان – رحمه الله – من العلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا، أوقاته معمورة ما بين عبادةٍ وتصنيف، وله تصانيف تدل على إمامته وكثرة اطلاعه وفضله، فمن تصانيفه كتابه ((الجامع لأحكام القرآن)) وهو من أجلّ التفاسير وأعظمها نفعاً، وكتابه ((الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى))، وكتابه ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة))، وغير ذلك من الكتب، وله أرجوزة جمع فيها أسماء النبي r

تأثره وتأثيره

تأثره

المطالع لتفسير الإمام القرطبي يلاحظ تأثرا كبيراً بعلماء سبقوه منهم:

الطبري: صاحب "جامع البيان في تفسير القرآن"، أفاد منه القرطبي وتأثر به خاصة في التفسير بالمأثور.

الماوردي: وقد نقل عنه القرطبي وتأثر به.

ابن عطية: وهو القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية صاحب "المحرر الوجيز في التفسير"، وقد أفاد القرطبي منه كثيراً في التفسير بالمأثور وفي القراءات واللغة والنحو والبلاغة والفقه والأحكام.

أبو بكر العربي صاحب كتاب "أحكام القرآن"، أفاد منه القرطبي وناقشه ورد هجومه على الفقهاء والعلماء.

تأثيره

تأثر به كثير من المفسرين جاءوا بعده، وإنتفعوا بتفسيره وأفادوا منه كثيرا. ومن هؤلاء:

الحافظ بن كثير.

أبو حيان الأندلسي الغرناطي وذلك في تفسيره البحر المحيط.

الشوكاني: القاضي العلامة محمد بن علي الشوكاني، وقد أفاد من القرطبي كثيراً في تفسيره فتح القدير.

يُعتبر تفسير القرطبي ((الجامع لأحكام القرآن)) أشهر كتبه وأعظمها نفعاً وقد أوضح القرطبي سبب تأليفه بقوله : ((فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع الذي استقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض رأيت أن أشتغل به مدى عمري، وأستفرغ فيه مُنّتي))

كما بيّن طريقة تأليفه بقوله: ((..بأن أكتب تعليقاً وجيزاً، يتضمن نكتاً من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعاً بين معانيهما، ومبيناً ما أشكل منهما، بأقاويل السلف، ومن تبعهم من الخلف)) ، وبهذا يتبيّن أن تفسير القرطبي يعتبر من التفسير بالمأثور الذي يفسر القرآن بالقرآن أو بالآثار الواردة عن النبي r أو عن السلف رحمهم الله.

وقد بيّن رحمه الله شرطه ومنهجه في تفسيره أوضح بيان، ولعلّي أُجمله في النقاط التالية:

١) إضافة الأقوال إلى قائليها والأحاديث إلى مصنفيها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله.

٢) الإضراب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين إلا ما لا بد منه، وما لا غنى عنه للتبيين.

٣) تبيين آيات الأحكام، بمسائل تُسفر عن معناها، وترشد الطالب إلى مقتضاها.

٤) إن لم تتضمن الآية حكماً ذكر ما فيها من التفسير والتأويل.

٥) ذكر أسباب النزول، والقراءات، والإعراب، وبيان الغريب من الألفاظ، مع الاستشهاد بأشعار العرب.

والذي يقرأ تفسير القرطبي يجد أنه قد التزم بما شرطه، وخطه من منهج في الغالب، فهو يعرِض لأسباب النزول، والغريب من الألفاظ، ويحتكم إلى اللغة كثيراً، ويرد على الفِرق كالمعتزلة، والقدريّة، والروافض، والفلاسفة، كما كان ينقل عن كثير ممن تقدمه في التفسير ، خصوصاً من ألّف منهم في كتب الأحكام كابن جرير الطبري، وابن عطية، وابن العربي

منهج القرطبي في تفسير آيات الأحكام

١) تقسيم الآية إلى مسائل.

٢) مراعاة الدليل وعدم التعصب للمذهب.

٣) تحقيق مذهب المالكيّة.

٤) ذكر الشواهد من أقوال العرب وأشعارهم

٥) اهتمامه بالإعراب .

اهتمامه بالمسائل الأصوليّة.

٦) اهتمامه بصحة الأحاديث.

٧) ذكر سبب الخلاف في المسألة.

٨) ذكر القراءات في الآية.

ذكر سبب النزول.

٩) ذكر مسائل الإجماع والاتفاق.

خلاصة القول :

١) أن كتاب الجامع لأحكام القرآن جمع الإمام القرطبي فيه جميع الأحكام الفقهيّة التي تمر من خلال آيات القرآن الكريم، ويُفصّل القول فيها بذكر أقوال العلماء.

٢) أن الإمام القرطبي أحد أئمة المذهب المالكي المحققين للمذهب، فهو صاحب علم غزير وتحقيق دقيق، كما أنه على دراية بأقوال المذاهب الأخرى، وأدلتها؛ لكنه مع ذلك منصف في حكمه متبع للدليل في رأيه.

٣) أن طريقة القرطبي رحمه الله في تقسيم الآيات إلى مسائل تُعتبر من أنفع الطرق في تفسير آيات الأحكام وشمولية الموضوعات، ولعلّه بذلك قد سبق الطرق الحديثة في عمل البحوث والرسائل العلميّة.

٤) عناية القرطبي الكبيرة عند ترجيحه للمسائل الفقهيّة، بالاعتضاد بما يُرجّح المسألة من ذكر أسباب النزول إن وُجد، أو القراءات، أو الإعراب مع استشهاده بأقوال العرب وأشعارهم.

٥) يُبيّن القرطبي رحمه الله أحياناً سبب الخلاف في المسألة الفقهيّة، مع بيانه لمواضع الإجماع والاتفاق، ومواضع الاختلاف، ويعتني بتخريج الفروع الفقهيّة على المسائل الأصولية، فهو فقيه أصولي.

وقبل استجلاء منهجه في التفسير ـ لنا أن نستكشف كذلك جانبا مهما من حياته ـ حتى نتعرف عليه أكثر ـ فهو: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبد

الله، القرطبي: من كبار المفسرين.. من أهل قرطبة. رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب (في شمالي أسيوط، بمصر) وتوفي فيها. من كتبه: الجامع لأحكام القرآن عشرون جزءا، يعرف بتفسير القرطبي، وقمع الحرص بالزهد والقناعة، والأسنى في شرح أسماء الله الحسنى والتذكار في أفضل الأذكار، والتذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة مجلدان.. والتقريب لكتاب التمهيد في مجلدين ضخمين، وكان ورعا متعبدا، طارحا للتكلف، يمشي بثوب واحد.. (ت: ٦٧١هـ).[٢]

وهو من العلماء العاملين، الزاهدين في الدنيا، المتصفين بالخلال الحميدة والصفات المجيدة.

أما عن مكانته العلمية:

قال ابن فرحون: «كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة، أوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة».[٣]

منهجه في التفسير:

لقد بين الإمام القرطبي– في مقدمة تفسيره – منهجه في التفسير، فبين أولا دوافعه لتفسير القرآن، ثم طريقته ومنهجه ثم شروطه في التفسير. يقول في مقدمته:

(فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجمع علوم الشرع، الذي استقل بالسّنّة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشتغل به مدى عمري، وأستفرغ فيه قوتي، بأن أكتب تعليقا وجيزا يتضمن نكتا من التفسير واللغات والقراءات والإعراب، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعا بين معانيها، ومبينا ما أشكل منها بأقاويل السلف ومن تبعهم من الخلف).[٤]

أما شرطه الذي التزم به في تفسيره، فقال فيه: وشرطي في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله، وكثيرا ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما، لا يعرف من أخرجه إلّا من اطلع على كتب الحديث، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائرا، لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم. فلا يقبل منه الاحتجاج به ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى من خرجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام.[٥]

فمنهجه في التفسير الأخذ بالمأثور والرأي:

يرجع القرطبي في تفسيره إلى التفسير بالمأثور ففي قوله تعالى: {أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً}. [الانشقاق: ٧ – ٨]. فسر الحساب اليسير بأنه الذي لا مناقشة

فيه ثم قال: «من حوسب يوم القيامة، عذب» فقلت: أليس قد قال الله عز وجل: {فسوف يحاسب حسابا يسيرا} [الانشقاق: ٨]؟ فقال: ليس ذاك الحساب، إنما ذاك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب.

احتكامه إلى اللغة والنحو:

يشترط القرطبي على المفسر معرفة اللغة، ويستدل على ذلك بالحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه». هذا حديث صحيح الإسناد على مذهب جماعة من أئمتنا ولم يخرجاه"

والمقصود هنا من إعراب القرآن هو تفسير ألفاظه وتوضيح معانيه وبيان غريبه.

اهتمامه بالأحكام الفقهية والأصول:

لا نجد تفسيرا شاملا للقرآن كله يخصّ تفسير آيات الأحكام بالاهتمام والعناية مثل تفسير القرطبي، الذي جعل من آيات الأحكام عنوانا لكتابه (الجامع لأحكام القرآن) بل لا عجب أن رأينا كتابه شاملا لجميع التفاسي، التي أفردت الأحكام الفقهية بالتفسير والاهتمام دون بقية الآيات، فلقد جاء القرطبي متأخرا عنهم، فجمع كتبهم على اختلاف مذاهبهم الفقهية، وإن كان يقتصر أحيانا على آراء الإمام مالك.